مؤرخو نجد
للشيخ: حمد الجاسر رحمه الله(١)

تمهيد:

يقولون: إن أسعد الشعوب هو الشعب الذي لا تاريخ له، ويقصدون الشعب الذي لم تحدث فيه حوادث تستحق عناية المؤرخين، ولكن هذا القول لا ينطبق على سكان نجد، ونقصد بكلمة - نجد - مدلولها الاصطلاحي في عهدنا الحاضر، الذي يشمل أكبر جزء في جزيرة العرب، فلقد كان هذا الجزء مسرحًا لكثير من الحوادث منذ أقدم عصور تاريخ العرب، ولكن عناية المؤرخين به كانت ضعيفة، ويرجع هذا إلى أسباب كثيرة منها:

١ - أن تاريخ الأمة العربية - على وجه الإجمال - لم يدوَّن إلا بعد ظهور الإسلام في القرن الثاني الهجري، وهذه البلاد تُكون الجزء الواسع من مهد العرب، الذي فيه نشأوا، ومنه انساحوا إلى أنحاء البلاد الأخرى شرقًا وشمالًا، قبل ظهور الإسلام بدهر طويل.

٢ - ومنها أن جل المؤرخين عنوا بتسجيل ما له صلة بالحكومات من الحوادث، تزلفًا إليها، وتقربًا منها، وأهملوا ما عدا ذلك، ومراكز الحكومات العربية - في عهود تدوين تاريخ العرب الحديث، في العراق، وفي الشام، وفي مصر، ولولا ما للحجاز من منزلة دينية في نفوس المؤرخين، لما امتاز من حيث تدوين تاريخه عن صنوه هذا الجزء الذي نتحدث عنه.

---

(١) نقلًا عن مجلة العرب، (٥ / ٧٩٢ - ٧٩٤) - باختصار -. وتُنظر أيضًا: مجلة العرب (٢ / ١٠١٣).

٣ - وقد لا نعدو الحقيقة إذا قلنا بأنه لولا الأزرقي، وأبو غسان شيخ ابن شبة، وابن زبالة، والطبري، والفاسي، والسمهودي، وأمثال هؤلاء من المكيين والمدنيين؛ لضاع تاريخ الحجاز، لأن عدم نبوغ علماء في أي قطر من الأقطار البعيدة عن مراكز الحكومات، ممن يعنون بتدوين تاريخ قطرهم، في العهود الماضية، من الأسباب التي تجعل تاريخ ذلك القطر مجهولًا، كحالة نجد[1]، فنحن إذا استثنينا علماء ثلاثة أو اثنين من علماء الحديث؛ كيحيى بن أبي كثير وعكرمة بن عمار (في القرن الأول الهجري) واستثنينا محمد بن إدريس بن أبي حفصة، ثم استعرضنا ما بين أيدينا من كتب التاريخ منذ بدء تدوينها إلى القرن الحادي عشر الهجري، لما وجدنا أية إثارة من علم تحملنا على الاعتقاد بقيام علماء في هذه البلاد فضلًا عن وجود مؤلفات تاريخية تعنى بتسجيل حوادثها.

ولقد قامت في نجد، في ذلك العهد، دويلات من أقواها:

١ - دولة الأخيضريين الطالبية التي حكمت تلك البلاد من منتصف القرن الثالث الهجري إلى أول القرن الرابع (٢٥٣ - ٣١٧هـ).

٢ - دولة القرامطة التي امتد حكمها من الأحساء إلى نجد في سنة ٣١٧ فأزالت الأخيضريين واستمر حكمها إلى منتصف القرن الخامس (٢٨٧ - ٤٧٠هـ) غير أن هاتين الدولتين باعتبارهما خارجتين على دولة الخلافة - الدولة العباسية - ولما أثر عن القرامطة من استهانة بحرمات الأماكن المقدسة، فإن أخبار هاتين الدولتين لم تصل إلينا كاملة، مع أن المتقدمين أشاروا إلى تصدي بعض المؤرخين لتدوين أخبارهما.

---

(١) كتب الشيخ حمد هذا قبل خروج بعض المصادر التي تُثبت وجود علماء في نجد منذ القرن الثامن الهجري. ينظر للفائدة: بحث «النهضة النجدية الثانية»؛ للدكتور خالد الوزان والأستاذ عبد الله البسيمي، في مجلة الدرعية (س٩ ع٣٦ ص٥٧).

رحالة في القرن الخامس يصف نجدًا:

ولعل من المفيد في هذا المقام أن نستمع إلى رحالة اخترق نجدًا في منتصف القرن الخامس الهجري وهو يصف ما عليه تلك البلاد من الجهل.

يقول ناصر خسرو علوي بأنه توجه من الطائف إلى نجد في **٢٣** ذي الحجة عام **٤٤٢** فمر بمكان يبعد عن الطائف **٢٥** فرسخًا، فلبث خمسة عشر يومًا بين قوم لا حاكم لهم، يعيشون على السرقة والقتل، ويمسكون كل من يدخل أرضهم بغير خفير ويجردونه مما معه، غير أنه سلم بسبب الخفير الذي معه منهم، ثم بلغ بلدة الأفلاج بعد شهر من خروجه من الطائف، فوجدها منقسمة إلى حزبين بينهما خصومة وعداوة، ووجد أهلها جياعًا عراة جهلاء، وفقراء جدًا، ومع فقرهم وبؤسهم فإنهم كل يوم في حرب وعداء وسفك دماء، وقد سلبوه ما معه من زاد ولباس، وتركوا أثمن شيء يملكه، وهو الكتب، وهذا أبلغ دليل على سيطرة الجهل على أهل تلك الجهات. وقد أيس من الحياة لما بلغ هذه البلدة؛ لأنه لا يتصور الخروج منها واجتياز مئتي فرسخ إلى البصرة كلها مهالك ومخاوف، ولكنه استطاع بعد لأي أن يخرج وأن يصل إلى اليمامة بعد مسيرة أربعة أيام، كلها مشقة وعناء.

مصادر تاريخ نجد القديمة:

وبلادٌ بهذه الحالة من الجهل والفوضى، لا مناص للباحث في تاريخها - في هذه الحقبة الطويلة من الزمن - منذ بدء تدوين التاريخ العربي بعد الإسلام إلى نهاية القرن العاشر الهجري - من الرجوع إلى المصادر العامة للتاريخ العربي، بعد أن يُعييه البحث عن مؤلفات خاصة بهذه البلاد وسيجد في هذه المصادر مادة غزيرة عما كانت عليه (نجد) في العهود التي سبقت الإسلام، عن أيام العرب، وجلها وقع في نجد بين قبائل من سكانه، وعن أخبار الشعراء الجاهليين

ومواطنهم، وأغلبهم من هذه البلاد، وسيجد المؤرخ في دواوين أولئك الشعراء الذين وصلت إلينا دواوينهم أشياء كثيرة مما يهم الباحث معرفتها، وسيجد المؤرخ أيضًا نتفًا من أخبار نجد، مما له صلة بتعيين الولاة، أو بصيانة طريق الحج، أو بخروج بعض القبائل على الولاة، أو بوفود بعض شعراء هذه البلاد على الخلفاء وما هو من هذا القبيل، غير أن كل ذلك يحتاج إلى الغربلة والتنسيق والترتيب بعد الدراسة العميقة. وكل ذلك أيضًا يمكن إرجاعه إلى ما قبل القرن الرابع الهجري، وما بعد هذا القرن - وإلى القرن العاشر - لا نجد لهذا الإقليم الطويل العريض - فيما بين أيدينا من المؤلفات - إلا ما جاء عرضًا في الرحلات المعروفة - كرحلة ناصر خسرو ورحلة ابن المجاور ورحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة، وكلها معروفة، وما جاء في هذه الرحلات لا يروى غلة الباحث المؤرخ.

وهذا القول لا ينفي وجود بعض الإشارات التاريخية الموجزة، التي تتعلق ببدء عمارة البلدان، مستقاة من الوثائق الشرعية وصكوك ملكية العقارات، بقيت تتناقلها الأيدي حتى وصلت إلى أول القرن الحادي عشر، حيث بدأ تدوين التاريخ الذي وصل إلينا عن هذه البلاد؛ لأننا نقرأ أخبار بدء تعمير بلدان عُمرت في القرون الثلاثة الأخيرة من هذه الحقبة من الزمن، فنجد فيما وصل إلينا أن بلدة (التويم) عُمرت في سنة ٧٠٠، و(حرْمة) في سنة ٧٧٠، و«المجمعة» في سنة ٨٢٠، و(العيينة) في سنة ٨٥٠، ونجد من أخبار القرن العاشر - فيما وصل إلينا - لمحات قصيرة عن حياة بعض مشاهير علماء ذلك القرن من أهل هذه البلاد، لما لتاريخ هؤلاء من ارتباط بوثائق العقارات.

في القرن الحادي عشر:

ليس لدينا الآن - ما يمنع من القول بأن بدء تدوين التاريخ في هذه البلاد لم

يكن معروفًا قبل أول هذا القرن، وإن كنت أرجو أن يأتي اليوم الذي يغير هذا الرأي، بالعثور على شيء من المؤلفات التاريخية، غير أن التاريخ تدوين حقائق واقعة لا دخل للآمال فيه.

حسين بن غنام

كانت الأحساء منذ القرن العاشر مركزًا من مراكز العلم في الجزيرة، يفد إليها الطلاب من نجد ومن سواحل الخليج العربي ليأخذوا عن علمائها، وفي عهد الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمد (١٢١٨ - ١٢٢٩) بلغت الدولة السعودية - في دورها الأول - أوجها من القوة، وأصبحت عاصمة المملكة (الدرعية) مقصد طلاب العلم، ورواد الفضل، من مختلف البلاد، فرأى الإمام سعود ﵀ أن هذه المدينة وإن كانت مركز الإشعاع لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وفيها أبناؤه العلماء، إلا أنها بحاجة إلى علماء يقومون بتدريس علوم اللغة العربية، فدعا عالم المبرز وأديبها الشيخ حسين بن أبي بكر بن غنام المالكي المذهب ليتولى ذلك[١]، فمكث في هذه المدينة بضع سنوات، لا يقتصر على التدريس، بل أخذ يدون تاريخ هذه الدعوة الإصلاحية، مبتدئًا بوصف حالة البلاد الإسلامية، إبان قيام الشيخ محمد بدعوته الإصلاحية، ثم بترجمة الشيخ، وذكر طائفة من رسائله ومؤلفاته، وخصص لذلك كتابًا سماه: «روضة الأفكار

---

(١) الصواب أنه قدم الدرعية زمن الإمام عبدالعزيز بن محمد؛ بدليل ماجاء في كتابه «العقد الثمين» - كما سبق -، وماجاء في قصيدته للحفظي، وقوله في مقدمة تفسير الشيخ محمد لسورة الفاتحة (١ / ٢٢٢، ط: أبابطين): «وكان سبب تأليفه لسورة الفاتحة أن الأمير عبدالعزيز، حفظه الله تعالى، كتب له، وهو إذ ذاك في بلد العيينة، يسأله أن يكتب له تفسير الفاتحة.. إلخ». فقوله: «حفظه الله» يدل على أنه ابتدأ كتابة تاريخه أثناء مقامه بالدرعية، في حياة الإمام عبدالعزيز.

والأفهام لمرتاد حال الإمام»، ثم أتبعه بكتاب آخر، جعله سجلًا للغزوات التي قام بها آل سعود في سبيل مناصرة هذه الدعوة ونشرها، وسماه: «كتاب الغزوات البيانية، والفتوحات الربانية» ابتدأها من سنة انتقال الشيخ محمد ابن عبد الوهاب من العيينة إلى الدرعية في سنة ١١٥٨، وانتهى في النسخة التي وصلت إلينا من هذا التاريخ إلى سنة ١٢١٣، أي قبل انتقال الحكم إلى الإمام سعود بخمس سنوات، وقد عاش ابن غنام إلى سنة ١٢٢٥ في ذي الحجة، ومن المستبعد أن يترك الشيخ ابن غنام اثنتي عشرة سنة (من ١٢١٣ - ١٢٢٥) دون أن يسجل حوادثها، والنسخة التي وصلت إلينا - سواء الأصول الخطية، وكلها من مخطوطات القرن الثالث عشر، أو المطبوعة - مبتورة بترًا واضحًا، آخرها:

لقد عدمتني الكُمْت يوم مجالها ولا وسّطت بي الجمع يوم التناضل
ولا أروتِ الأسْلُ الظماء

(آخر ما وجد من التاريخ)..

وقد جرى ابن غنام في كتابة تاريخه هذا على طريقة حاول بها أن يظهر براعته اللغوية، فكتبه مسجوعًا مملًا، وقصره على أنباء الحركة التي خصصه لتاريخها، فكان أوفى سجل لها في خلال نصف قرن (من سنة ١١٥٨ إلى سنة ١٢١٣) وهو أوثق مصدر عن حوادثها.

وفضلًا عما يتصف به ابن غنام من تمكنه من اللغة العربية هذا التمكن الذي حاول إبرازه بتاريخه الذي ضمنه كثيرًا من شعره، فإن له مؤلفات أخرى؛ منها «العقد الثمين في أصول الدين»، وكان من تلاميذه كبار علماء الدرعية في عهده؛ كالشيخ حمد بن ناصر بن معمر، والشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد، وغيرهما.

وقد عُثر على تكملة لتاريخ الشيخ حسين بن غنام، وصلت إلى الخزانة السعودية في الرياض وقت نشر تاريخ ابن بشر لأول مرة، أي سنة ١٣٤٩،

ويظهر أن احتواء تاريخ ابن بشر على جل ما في التكملة، وأن أسلوبها مما لا يتلاءم مع أذواق كثير من القراء في هذا العهد للسجع الممل، وأن تاريخ ابن غنام سبق نشره، وليس هناك كبير فائدة في هذه التكملة لكي يعاد طبع التاريخ كاملًا، هذه الأسباب حالت دون نشر تلك التكملة، وقد وصلت إلى مكتبة الأستاذ رشدي ملحس، وهو الذي حدثني عنها.

